وقفة تأمّل أمام سورتي يس و الواقعة

د . عادل المخزومي
الجامعة المستنصرية / كلية التربية

" **المقدمة** "

القرآن الكريم هو ليس ككل الكتب التي تضمها المكتبات ، وما يعنى بقراءته الكثيرين سواء منهم مسلمين وغير مسلمين ، لذا رغبت من خلاله مخاطبة الإنسان ، أي انسان ، مستثنياً الأنبياء ومن يقترب منهم في الوَرَع والتَّقوى . كما ورغبة مني في تسلسل سياق التصور الذي اشعر به ، حاولت عدم الاعتماد على آراء العلماء الكبار والمفسرين الفطاحل(وهم اساتذتنا شئنا أم أبينا) .

وأقول : لِمَ تكون ظالماً لنفسك أيها الإنسان ، وتسحب ظلمك على الآخرين من بني البشر ، بَلْ والمخلوقات الأخرى ؟

انه العجب إن لم نتوقف ملياً أمام محدّثنا (•) الذي كان منذ أكثر من (١٤٠٠) ألف وأربعمائة عاماً مضت ، وما زال يحدثنا ، وينصحنا ، ويوجهنا ، لكننا وضعنا في آذاننا ما يمنعنا ان نسمع ، وعلى عيوننا ما يحجب عنا رؤية النِعَم التي لاتُعدّ ولاتحصى ، سواء منها في أنفسنا ، أو في مخلوقات الله الأخرى .

لِمَ ابتعدت أيها الإنسان عن ربك وتعاليمه التي شأنها ان تصلح حالك ونفسك وعملك ؟

أين الصعوبات التي تعانيها ، وانت متوجه لعمل الخير لك وللإنسانية حيثما تطلّبت الضرورة؟

انه (سبحانه) ليس بحاجة لك أيها المخلوق ، الصغير البائس ، مهما كبرت في حجمك ، ربما تعتقد انك كبير وغَفَلت ان هناك مَن هو أكبر منك بالحجم ، ومهما تطاولت في حَذْلَقاتك وإدعاءاتك بالمعرفة والعلم ، فهناك مَن هو أعلم منك ، لكن رغم هذا وذاك ، فإنه سبحانه يرعاك ، ويكرّمك رغم تناهيك بالصغر أمام عظمة الخالق الجبار .

لذا فإنه سبحانه لايضيره ان يتعاطف معك ، ويتواضع في حديثه معك،مصحوباً بالقسم .

أمَا توقفت مرّة لتجد حجمك عند الله سبحانه الذي عنده البعوضة شأنها شأن المخلوقات الأخرى ؟

ومع هذا وذاك تعال معي أيها الإنسان الذي يرسم لنفسه هالة من العزّة والعظمة والجبروت ، وهو لايستطيع ان يردّ ما يسلبه الذباب شيئاً .

• – خير محدّث لنا هو القرآن الكريم .

تعال معي لنرى مكانة رجل (كان ينبغي لنا ان نتّخذه قدوة في كل شؤون حياتنا) الذي اختاره الله تعالى بعد ان استعرض الكَوْن كُلّه ، بما فيه من كواكب ونجوم ومجرات تدور في أفلاكها منذ خُلِقَت حتى اليوم ، وليس هناك خللٌ قد طرأ عليها ، ولا إنفرط عقدها ، (وكلٌّ في فَلَك يسبحون) .

فاختار من بينها الأرض ، هذا الكوكب الصغير الضئيل من بين الكواكب الأخرى المختلفة الأحجام .

ثم استعرض هذه الأرض ، فاختار بقعة ، صحراء ، جرداء ، خالية من كلّ مقومات الحياة التي يتطلّبها الإنسان ، إذْ لا ماء ، لا زرع ، لا مناخ يرتاح له المخلوق .

كانت وما زالت هذه البقعة لم يطرأ عليها تغيير ، فهي شبه جزيرة ، تحيطها المياه المالحة من جهاتها الثلاث ، ينعدم فيها وجود الماء إلاّ من عيون متناثرة ، وآبار متباعدة ، يجهد الإنسان للوصول الى مائها ، تمتد الرمال على وجه أرضها ، تصل شمالها بجنوبها ، وشرقها بغربها ، تشمخ في حافاتها جبال جرداء ، مصاحبة مياه البحر والخلجان المحيطة بها ، وتمتاز بقلّة الأمطار ، يلفّها مناخ صحراوي يتميز بحرارته القاسية ، وبرده الجاف اللاّسع .

تسكنها قبائل عربية ، يعوزها الكثير من المدنية التي تتمتع بها الشعوب الأخرى . فاختار سبحانه من هذه القبائل ، قبيلة قريش التي كان لها شأن بين القبائل العربية الأخرى .

ثم اختار من بين قريش ، بني هاشم التي أنجبت الكثير من الرجالات الذين يُشار لهم بالبنان ، وما زال التاريخ يحدثنا عن مآثرهم الطيبة ، لكنه (سبحانه) تجاوز كل هؤلاء ، ليختار من بينهم ، واحداً يتيم الأب والأم ، وليس له من الثراء مثل ما لعمومته وأبنائهم ، لكنه سبحانه تعهده ، وتكفّل برعايته ، ليكون بعد حين ذا شأن خطير ، غيّر مفاهيم الإنسانية السائدة آنذاك ، ومازال أثره يتنامى ، ليدخل عقول وأفئدة مَن يطّلع على ماجاء به ذلك الرجل .

فمن هو ذاك الرجل ؟ انه النبي الأمين (صلوات الله عليه) قد صقل جوهره تعالى ، ليكون مبشراً برسالة سماوية ، لايستطيع غيره على إدائها ، وتوصيلها الى البشرية التي قيّدتها تقاليد وأعراف ، يستحيل على غيره (لولا رعاية الله له) ان يجتمع عليه رجال ، ليكونوا له آلَ بيت وصحابة وتابعين وأتباع ، مازال الدهر ينجبهم ليحافظوا على ديمومة هذه الرسالة وتعاليمها ، وشرائعها .

هذا الرجل اليتيم الأمّي الذي لامال له ولاثروة ، كان محط اعتزاز ورعاية عند خالقه ، الذي يخاطبه بقوله تعالى ((**وانك لعلى خلق عظيم**)) (ن والقلم / ٤).

مجلة كلية التربية ... العدد الثاني ... ٢٠٠٩

تأملات في فلسفة سورة يس :

الله تعالى يخاطب ذلك الرجل الأمي المختار (صلى الله عليه وآله) بالقَسَم الرّباني بقوله تعالى ((**يس** ﴿١﴾ **وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ** ﴿٢﴾ **إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ** ﴿٣﴾)) ، أرسله سبحانه بعد ان وضعه على الصراط المستقيم الذي لاعِوج فيه ، ولا انحراف ، ولا شوائب ، ليكون لنا مثلاً و قدوة نقتديها في حياتنا اليومية متّخذين من ((**تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ** ﴿٥﴾)) دروساً ، نصلح بها سلوكياتنا ، وعاداتنا ، وتعاملاتنا مع الآخرين ، منذراً لنا ، كما أُنذر آباؤنا الأولون الذين غفلوا ما وُجّهوا اليه،وها نحن نقرأ قوله تعالى ((لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾)) .

انه العجب ان نبتعد عن الطريق السالك ، المعبد ، الذي لاتعتوره مطبّات ومزالق ، هو طريق الإيمان ، الذي نجد فيه السعادة لأنفسنا ولغيرنا ، لكن رغم هذا وذاك نبتعد معاندين مكابرين ، حتى كادَ الواحد منا يشمخ بأنفه متحدياً خالقه ، بأنه لا يريد ان يدخل الإيمان قلبه . متّخذاً أساليب عجيبة في إغضاب الله تعالى .

فقد حرّم الخمرة فتوجهنا اليها وعاقرناها ، وحرّم الزنا وكان طريقنا سالكاً اليها ، وحرّم القمار والمراهنات ، وكان فكرنا معلّقاً بساعات انعقاد جلساتها ، وحرّم القتل ، والسرقة ، والكذب وغيرها ، ونجد بعضنا يباهي ، ويفاخر انه متميز في هذا السلوك .

أترى لِمَ هذا السلوك الشائن الذي يغضب الرب ؟ أهو قوة يراها الإنسان عنده ، لكسب غضب الله ؟ انه أمر عجب . أم ان مثل هكذا انسان يدلل على ضعفه وخَوَرَه تحت سلطة (إبليس) الذي أكد على غواية بني البشر ، ممن لايدخل الإيمان قلبه (*) .

رغم ان الله سبحانه أنذر البشر الذين أصابهم العمى في البصيرة ، بأن مثل هؤلاء قد أحيطوا (لا بل هم أنفسهم الذين أحاطوا أنفسهم بسبب سوء أعمالهم) بسدٍّ من امامهم ، ومثله من خلفهم ، وقد ثقلت أعناقهم بالأغلال ، وهم لايشعرون بهذه الحال التي هُم عليها . وما زال كتاب الله وكلماته التامّات بين حدقات عيوننا كل حين ، وقوله تعالى يبرز أمامنا كما هو الآتون الملتهب ، أو هو صرخة تصكّ اسماعنا ، لكننا مخدّرون لا نفقه قوله تعالى ((. . . فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ)) .

المكابرة والعناد عند البعض من بني البشر :

أترى هل انطبق علينا قوله سبحانه((**وَسَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ** ﴿١٠﴾))

---

* – يمكن الرجوع الى سورة الأعراف لتدبر المضمون الأخلاقي من خلالها .

؟ عجباً لِمَ اصرارنا هذا ، على الشر ؟ لِمَ لَم نتّخذ العبرة ممن سبقونا في الحياة ، ونتّعض بما جرى لهم ، وما كانوا يعانون منه ؟ أليس في هذه الحالة تأكيد على عدم تأثير الإنذار فينا ، فابتعدنا عن الإيمان الذي هو لصالحنا حتماً ؟

أترى لِم تميّز بعضنا لينال رضا ربه دوننا ؟ فهل وجد هؤلاء (المَرْضِيّ عنهم) الذين أثّرت فيهم تلك الإنذارات الإلهية ، معانات في حياتهم الدنيا ، وصعوبات في ممارسة أعمالهم ، وعلاقاتهم الإجتماعية ، وعطائهم الفكري والعلمي الذي خلّدهم ؟ وسلكنا نحن غير طريقهم .

انها والله هي المغفرة ، والأجر الكريم الذي نالوه ((إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ [١١])) ، هؤلاء الذين أصابتهم الخشية من الرحمن الرحيم ، قد عاشوا حياتهم الدنيا في سعادة وكرامة ، وظلّت آثارهم تحكي لنا وللأجيال اللاّحقة مآثرهم الطيبة التي خدموا بها البشرية .

أما المعاندون ، فقد عاشوا في مرارة العلاقات الإجتماعية المتعثّرة ، وغَلَبَة الأمراض والأسقام ، وفقدان احترام الآخرين لهم ، ولستُ مبالغاً إذا قلت انهم فقدوا احترام الآخرين حتى أمثالهم ممن هم على شاكلتهم .

أترى معي ان اللص يكره اللص رغم انه لصّ ، ويزاول نفس عمل صاحبه . وان القاتل يكره ويحاذر القاتل مثله ، خشية وخوفاً ان يناله سكين صاحبه . والزاني يكره الزاني مثله خشية ان ينحدر هذا في طريقه الى محرمات هذا . والكذاب يكره ان يستغفله مثيله ، ويمرر عليه اموراً يحرص ان لا تمرر عليه .

حقاً انها غفلة تصيبنا ، ولم نستشعر خسارتها إلاّ بعد وقوعها .

وليس لنا متّسع من الوقت لنستذكر السالفين الذين ذهبوا الى حياة الآخرة ، مع ما سُجّل عليهم خلال حياتهم الدنيا ، لنتدبر قوله تعالى ((**إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ** [١٢])) .

فليس منا من يستطع ان يتكتّم على سلوكياته المشينة . نعم ، ربما يستطيع ان يخفيها بعضاً من الزمن عن البشر ، لكنه بعد حين تبدو معالمها للمحيطين به رغم حرصه على كتمانها .

هنا نتساءل : لِمَ يَتَكَتَّم مثل هذا على أعمال يقوم بها ؟ وهل وجدنا يوماً عالِماً يخدم البشرية ، يَتَكَتَّم على عِلمه ؟ أم وجدنا كريماً مِضْيافاً ، يُطْفئ مصابيح ديوانه ، كي لايراه الآخرون ؟

لكننا نجد أنفسنا نتكتّم على معاقرتنا الخمرة ، ونختلي في عتمة الليل لممارسة الفحشاء والرذيلة ، والرعب يلفّنا من أن يطّلع الآخرون على سلوكياتنا المشينة،انها مفارقات عجيبة لسلوك الإنسان .

جند الله لمحاربة الفاسدين على الارض :

نعم ربما يقول قائل : ان مايتّخذه الإنسان من سلوكيات ، ينصب خيرها وشرها على صاحبها ، فمالنا ومثل هؤلاء ؟ حقاً ليس لنا شأن في تغيير مسار هؤلاء ، لكن على ان يبعدوا شرورهم ان تصيب البشرية والمجتمع ، ولهم ساعة يقفون فيها أمام ربّ جليل .

ثم نتوقّع من يقول : وهل انبعث من الأجداث احدهم ليخبرنا عن عذاب الحياة الأخرى ؟ عندها نذكرهم بقوله تعالى ((**وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ** ﴿١٣﴾)). وما تَلا ارسال هؤلاء الرُسُل من تكذيب ورفض ، وما صدر عن هؤلاء المكذبين من تهديد برجمهم للرسل وصبّ العذاب عليهم.وما تُبَيِّنَه الآيات الكريمة من حصول ايمان عند أحدهم، فكان طريقه الى الجنة بعد حياة إيمانية دنيوية،وهو يتمنى ان يكون قومه أولئك على دراية،ومعرفة بما نال هذا الرجل المؤمن من مغفرة وتكريم .

أما قومه الذين ظلوا في ضلالهم فقد أنزل الله سبحانه عليهم جنداً من السماء ، حتى لَيَتَخَيَّل المرء ان الجنود المنزلة من السماء ، كما هي جنود اليوم . ولم يضع في حساباته ان الجند هم صور مختلفة يتعرّض لها المخلوق ، فهي عواصف ، وهي فيضانات ، وهي زلازل وبراكين ، وهي ... ، وهي .... ، وهي كوارث مختلفة التسميات ، كما هي مختلفة النتائج فيما يصيب المخلوق ، سواء أكان بشراً أم شجراً أم حجراً . ((**إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ** ﴿٢٩﴾)) ، ولك ان تتخيل نوع هذه الصيحة التي تؤدي الى فناء الموجودين ، وهي نوع من أنواع الجند الذين يرسلهم الخالق سبحانه من السماء .

يذكرنا الله تعالى في كتابه الكريم ان نلتزم بالإبتعاد عن نواهيه التي تؤذي صاحبها ، وما يزال يذكرنا الكتاب الجليل بأن نتّعض بما صار اليه الأقوام السالفون ((**أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنْ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ** ﴿٣١﴾)) .

نعم يؤكد سبحانه الى انه ذو قدرة على احضار من يشاء ، ويحيي من يشاء ، ويُغني من يشاء ، ليكونوا عبرة وعِظة للموجودين واللاحقين .

لِمَ لَم نتوقف كثيراً عند هذه المخلوقات لنرى قدرته سبحانه فيها ؟ هذه الأرض التي نراها ميتة جرداء ، فقد أحياها تعالى بعد ان أنزل اليها غيثاً من المطر ليخرج منها ((**حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ**)) (آية ٣٣) ثم جعل فيها ((**جَنَّات مِن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ**)) (آية ٣٤) . بعد ان فجّر فيها من العيون ، وأمر الماء أن يسيل في مساربه ليصير أنهاراً ساقيات لِما أنبته سبحانه ليكون ثمراً وغذاءاً كي ((**يَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ**)) (آية ٣٥) وفيما هدى الله سبحانه الإنسان ليشرع في

زراعة الأرض به ((**أَفَلَا يَشْكُرُونَ** ؟)) (آية ٣٥) ولم يلتفت الإنسان الى انه سبحانه لم يخلق شيئاً إلاّ وكان له نظيرٌ ، ليكونوا أزواجاً متآلفة ، منسجمة ، مما تراه العين في البشر والشجر والحجر ، والذرّة التي لا تراها العين ، فقد أثبت العلم انها تحتوي على زوجين متناظرين ((**سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ** ٣٦)) (آية ٣٦) .

عجباً لدقة نظام الكون :

أليس لنا ان نشغل فكرنا بما يمر علينا كل يوم ، وبصورة منتظمة ، لِمَ لَمْ نتأمّل هذا النهار ذا الحركة الدائبة للمخلوقات ، ومن ثم يتبعه ليل تسكن فيه الحركة ، ويخلد المخلوق للراحة والسكينة ، إلاّ ما خلقَ الله بعضاً من مخلوقاته ليكون لها الليل معاشا ، والنهار سباتا ؟ وليس عنا ببعيد هذا (الخفاش) وقد وصفه الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) (•) موضحاً الكيفية التي تميز بعجائب صنعه ، وغرائب حياته ، وهو واحد ممن جعل الله له الليل معاشاً ، وحركة دائبة لايعجزه رؤية ما أمامه من جدران ، أو تشابك أغصان رغم ظلام الليل الحالك ((**وَآيَةٌ لَّهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ** ٣٧)) (آية ٣٧) .

فلو تجاوزنا الأرض وفلكها ، سنتوقف كثيراً أمام الشمس التي ((**تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا**)) (آية ٣٨) بقوة ، وإرادة حكيمة ، لا يشوبها خلل أو إضطراب ، ومثلها القمر الذي حدد له سبحانه منازل ((**حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ**)) (آية٣٩) ومثلها الكواكب الأخرى التي لكلٌ منها مساره ومداره ((**لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ٤٠)) (آية ٤٠) ، انه نظام دقيق عجيب .

والأعجب منه ان نسمع هنا وهناك ، سواء قبل الإسلام ، أو بعده ، ان أُناساً مكابرين ، يدّعون ان هذا الكون ليس له صانع ، وليس له مقدّر ، وليس له محرّك .

حتى يكاد المرء ان يضع هؤلاء في (خانة) أو قائمة المختلّين عقلياً ، لولا معرفتنا بما هم عليه من درجة فكرية متقدمة .

لكن ينبغي ان نتساءل فيما إذا كان هؤلاء مقتنعين فيما يقولونه أو يوردونه ؟ أم انهم انحدروا في مسارب الشكّ ومزالقه ؟ !! .

نعم لابد لنا ان نبين اهتمامنا ، ومن ثم شكرنا لهؤلاء ان أيقظوا لدينا حِسّ الثورة والإنتفاض ضد

• –يمكن الرجوع الى شرح نهج البلاغة للإطّلاع على رؤية الإمام علي(عليه السلام)عن هذا الحيوان العجيب .

هذه الأفكار ، والنظريات التي أبدوها ، لتكون لنا رؤية صقيلة ، واضحة ، وإلاّ فنكون كما هي الببغاوات ، تقلد سابقيها ، دون تفكّر وتدبّر .

نعم هؤلاء أيقضوا عندنا الشعور بضرورة العودة الى الكتب السماوية (تـوراة ، وزبـور – او الكنزا ربا – وإنجيل) ، و من ثم الإحتكام الى القرآن الكريم ، لنجد آياته تصدق الكثير ممـا جاء به الأنبياء السابقون ، لتكون عندنا ثقة أكيدة بأننا مخلوقات بإرادة خالق قادر ، ذي قدرة (*). ونجد في القرآن كثيراً من الإشارات الى ضرورة تدبر آيات الله العجيبة ، والتي فيهـا صـالح المخلوق ، لكن المعاندين يأبَون إلاّ ان يخالفوا ، ويعرضوا عنها ((وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَـاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ وما تأتيهم من آية من آيات ربهم ، إلاّ كانوا عنها معرضين)) آية (٤٦) .

حتى وجدنا البعض يدخل في جدل مع ناصحه في أن يخرج من أمواله شيئاً محدداً (بالزكـاة) ليكون إعانة لمحتاج ، لكنه يمتنع مؤكداً بأن هذا المحتاج ، وأي محتاج ، لا ضرورة لإعانتـه ، فلو شاء الله ان يعينه لأعانه ، ويؤكد (هذا المعاند) بأن الله سبحانه لا يريد لهـذا المحتـاج ان يتمتع براحة ونعيم . ((**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِـمُ مَن لَّوْ يَشَاء اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴿٤٧﴾)) (آية ٤٧) .

وفي عودة الى الآية (٢٨) ((**وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَـا كُنَّـا مُنْزِلِينَ**)) ، نجد البعض ممن لم يدخل الإيمان قلبه ، يجادل وينكر ان لله جنداً يرسلهم لمعاقبـة المستحقين (*) ، حتى باتوا يحاولون تسفيه آراء المؤمنين الناصحين ((**وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴿٤٨﴾)) (آية ٤٨) ، مشيرين الى إدّعاء المؤمنين ، وكذبهم فيما ينـذرون وينصحون ، معتقدين ان هذه الإنذارات ، ماهي إلاّ وَهْم ، وخداع لردع المعاندين عن شرورهم ، فأنزل الله سبحانه نوعاً آخر من جنده ، وهاهم ((**مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِـدَةً تَأْخُـذُهُمْ وَهُـمْ يَخِصِّمُونَ**)) (آية ٤٩) ، وتُركوا في ذهولهم ، ليس لهم منقذ ، أو نصير ، أو مخلّـص ، ((**فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ** ﴿٥٠﴾)) .

---

* ١ – ينقل لنا البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق ص١٢٨ ان الجهم قال : ((. . . لافعل ولا عمل لأحد غير الله ، وانما تنسب الأعمال الى المخلوقين على المجاز . . .)) .

* ٢ – سبق ان ذكرنا ان الكوارث الطبيعية هي صنف من اصناف جند الله سبحانه .

المخلّص الموعود ، والعودة الى الحياة مرة أخرى :

ثم أكد (سبحانه) بأن لنا عودة للحياة الأخرى ، بعد ممات يطول أمده أو يقصر ، الى ان يشاء تعالى في موعد لايعرفه أحد ، وليس لأحد ان يوقّت يومه أو ساعته ، انه أمر قد غيّب عن المخلوق ((**يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً**)) الأحزاب /٦٣.

بذلك لم يكن للرسول (صلوات الله عليه) علم بقيام الساعة ، ولمّا كان أمر قيام الساعة ويوم الحساب قد (تحقق غيابه) على النبي الأكرم وهو أقرب الى الله سبحانه ، فمن الأولى ان يكون هذا العلم غائباً عن بني البشر دون استثناء . فمن قال بذلك ، لم يكن إلاّ مدّعياً .

ولكن لانعجز عن التدقيق في بعض الآراء التي تشير الى علامات وإشارات تسبق قيام المنقذ ، المخلّص للبشرية ، استناداً لما تحدّث به الرسول (صلوات الله عليه) ، مذكّراً المؤمنين ، ليتّقوا ، ويصلحوا حالهم ، ويحسنوا أعمالهم ، وهو (صلوات الله عليه) لم يكن يشير الى قيام الساعة ، بل الى ان الدنيا سيصيبها الشر ، ويملؤها الجور والظلم والطغيان ، فيبعث الله سبحانه من يخلّص البشرية من ذلك ، لتمتلئ بعد ذلك عدلاً وفضيلة .

ولنا أن نعود الى أصحاب العقائد والأديان السابقة للإسلام ، فسنجد مفكريها متفقين على ان البشرية (موعودة) بأن سيكون لها مخلّص ومنقذ . وكل من أولئك المفكرين يضع له اسماً ومواصفات ، لا تبتعد عما يقوله الآخرون .

ثم انه سبحانه يعطينا صورة مذهلة لِما سيجري في اليوم الموعود (يوم قيام الساعة) ، بعد ان تتشقق الأرض ، وتتفتّح القبور ((**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ**)) (آية٥١) ، ليجدوا أنفسهم مبعوثين من قبورهم بعد سبات طال أمده ، رُكِنوا فيه متوسدين الأرض ، وهي مطبقة بثقلها عليهم ، وتشتت أجزاء أجسادهم ، وذهابها الى بطون الديدان أو متبخرة الى الفضاء أو بطون الطير والسمك لتكون مستقراً لها الى حين ، وآلَت كل جزيئة من هذه الأجساد الى حالة تختلف عن الأخرى ، متبعثرة في الأنحاء والأرجاء المتباعدة.

ويتم أمر الله تعالى ، لتُجمَع تلك الجزيئات المتناثرة ، وتعود أجساداً كلاً لصاحبها بأمر منه (سبحانه) ، فتصيبهم الدهشة والذهول لعودتهم التي كانوا بها يستهزؤون ولا يعترفون ، ولم يكن لهم سوى إظهار الندم والأسف على ما مضى من غفلة وتغافل ((**قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ** ٥٢)).

حتى لَيَتَخَيَّل المرء ان الأرض المنبسطة أمام ناظرِها قد امتلئت بشراً ، بكل الألوان والأصناف

والأنواع ، قد رانَ الصمت والترقّب من ساعة اللقاء ، وساعة الحساب ، فَبِماذا سيُجيبون عند الإمتحان ؟ إنه أمر رهيب .

لقد أمر الله سبحانه ان تُجمع تلك الأجزاء المبعثرة المشتتة ، المتناثرة ، المتباعدة في الأرجاء.

أمر تعالى بصيحة واحدة ، فكان البشر أجمعهم متواجدين ((**إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ** ﴿٥٣﴾)) .

كل نفس بما كسبت رهينة :

عند بدء الإمتحان وإدائه ، سيخرج البشر من ساحة الإمتحان ، وكلٌّ له درجته ، وتقييمه ، وجائزته التي يستحقها (ثواباً أو عقاباً) .

فليس هنالك في ذلك اليوم مَن يحمل هَمّ غيره ، مهما كان (أباً أو أخاً أو حبيباً) ، كلٌّ ينال جزاءه ، وفق ما قدم في حياته الدنيا ((**فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**)) (آية ٥٤) . فلا يُبخسُ حق أحد ، ولا يُهضم عمل عامل ، كما لا مجال لأحد ان يطلب تمييزاً أو استئنافاً أو طلباً لتخفيف حكم صدر بحقه من رب العزّة والقدرة .

في ذلك اليوم ، يكون قسم من بني الإنسان مستبشرين ينتظرون لقاء ربهم ، مطمئنين ، وقسم آخر يكونون صفر الوجوه ، مرعوبي الجنان ، مُتْعَبي الفؤاد ، يبحثون عن ملجأ أو مأوى وناصر ومحام ، فلم يجدوا ، ولم يكن لهم إلاَّ أن (ينتبذوا مكاناً قصيا) ، منعزلاً ، مجتمعين بأمثالهم ((**وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ** ﴿٥٩﴾)) . تراهم ينعزلون في أطراف بعيدة عن القسم الأول المستبشر بساعة لقاء ربه .

أولئك الذين ينتظرون صدور الأمر بتوزيعهم الى حيث أصناف الجنّات ، وفردوسها ، وكلّ منهم يتخيّل الكؤوس المترعة ، يطوف بها عليهم الولدان المخلّدون التي سيشربونها حتى الثُمالة ، والفاكهة الدانية القطوف ، والأرائك التي عليها سيتّكئون .

إنها رؤيا يتخيّلها الإنسان (على قدر مايعتقده سيكون) ، ورغم هذا وذاك ، لا أحسبه قد استطاع ان يجسّم الصورة الحقيقية لجنّات عدن ، التي وعد الرحمن بها الذين يستحقونها ((**إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ** ﴿٥٥﴾ **هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِؤُونَ** ﴿٥٦﴾ **لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ** ﴿٥٧﴾ **سَلَامٌ قَوْلًا مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ** ﴿٥٨﴾)) .

هؤلاء المتّكئون على الأرائك هُم وأزواجهم ، لم يكن للشيطان عليهم سلطان ، رغم محاولاته العديدة ، حتى غدا آيِساً من إغوائهم .

أما أولئك المُنتبذون مكاناً قصياً ، لم يكونوا قد استمعوا تحذير خالقهم ، على لسان رسله وأنبيائه ، وقد ضعفوا أمام إغواء إبليس وذريته وأتباعهم ، فكانوا له عُبّاداً يحققون له رغباته في مخالفة الرب الخالق الذي سمح له في محاولاته لغواية بني آدم ، ممن لا يمتلك الإيمان بالله ، فصار عبداً للشيطان ، متّبعاً ما يوجهه اليه نحو الرذيلة والفحشاء والكذب وقول الزور والسرقة والإختلاس والقتل للنفس التي حرّم الله قتلها إلاّ بالحق ، والإعتداء ، وخلق الفتن ليجعل المجتمعات مضطربة ، متفككة ، متعادية ، متصارعة .

انهم ضعفاء (مساكين) ، ربما يستحقون منا الدعاء لهم بالرحمة والغفران ، إن كانت أعمالهم لاتتجاوز الضرر بأنفسهم وحالهم .

أما إذا كان ضررهم قد تجاوز الى الآخرين ، فلا يستحقون منا طلباً ليرحمهم الله سبحانه .

لقد حذّرهم الله (تعالى) الشيطان ، وأفهمهم بأن الشيطان لهم عدوّ ، ومنعهم ان يتّخذوه مرشداً وموجهاً ، لكنهم كابروا ، وخالفوا تعاليم الخلق ، ونسوا ما قال تعالى منذراً ومحذراً ((**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** (٦٠))) . ولم يكن هذا الإنذار والتحذير نافعاً لهؤلاء ، وأصرّوا على اتخاذ الشيطان إلها ، وساروا على نهجه ، واتّبعوا تعاليمه وإرشاداته وغوايته ، متغافلين عن نصيحة الخالق وقوله ((**وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ** (٦١))) . فلم يلتفتوا الى الخير الموعود ، ولم يلتفتوا الى مَن سبق ان أضلّهم الشيطان ، وكان مصيرهم جهنم وبئس المقر ((**وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ** (٦٢))) .

إذن فليلاقوا حسابهم في مصير كؤود ، ونتيجة معروفة ، انها ((**هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ** (٦٣))) .

يبدو ان الذين تجبّروا وتكبّروا وأنفوا أن يستمعوا لنداء الخير الإلهي ، قد أُسقط بأيديهم ، ولم يكن يخطر على بالهم ان النار الملتهبة ظلّت سنين تضطرم ، ويشتدّ إوارها ، وتتصاعد ألسنة لهبها ، منتظرة وقودها هذه الأجساد الغضّة الطرية ، التي إعتنى أصحابها في تسمينها وتحسينها ، وصرف الأموال الطائلة مما كسبوه مالاً حراماً ، لتكون مؤهلة ان تزيد لهب تلك النار الحامية ، فهل لكم أيها المُتَباهون منفذٌ تخرجون منه ؟ فاذهبوا إذن سراعاً نحوها ((**اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ** (٦٤))) . إذهبوا اليها أيها الكافرون ، فليس للرب الجليل بكم حاجة . و لا أنتم ضارّوه بشئ ، كما ليس هناك ضرورة ان تدافعوا عن أنفسكم، فليس لكم اليوم فرصة للكلام (فات أوان الإستغفار وطلب الرحمة) أفواهكم قد خُتِمَ عليها ، وانعدم عندكم الصوت والكلام ، وها هي أيديكم و أرجلكم ، ستقدم شرحاً مفصلاعمّا عملته بتوجيه منكم ، بأمر صادر عن

رغباتكم ، وأنتم تصرون على اقتراف تلك الأخطاء المشينة ((**الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**)) .

وشاهد عليكم من انفسكم :

وستصيبكم الدهشة والذهول ان تسمعوا أرجلكم قد شهدت على ما اقترفتم من ذنوب سبق لكم ان وظّفتم أرجلكم للسير سراعاً نحوها ، لتكسبوا أموالاً ، وعقاراً ، ورفاهاً ، وملذّات حرّمها الله ، وحذّركم منها رُسل الله سبحانه ، وأنبياؤه وأولياؤه .

لم يكن الله تعالى عاجزاً عن عقابكم فور ارتكابكم المعاصي والذنوب ، لكنه سبحانه يريد ان تكونوا عبرة لغيركم،بعد ان وجد فيكم العناد والإصرار على ارتكاب المعاصي.

كان سبحانه له القدرة ان يمسخكم قردة أو خنازير ، أو غير ذلك ، كما سبق ان مسخ أقواماً قردة أو خنازير . عقاباً لهم بما كانوا يفعلون ((**وَلَوْ نَشَاء لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ** ﴿٦٧﴾)) .

لم تكن الخليقة قد عُدِمَتْ ممن بلغوا في العمر عِتِيا ، انه أمر الله (سبحانه) ان يمُدّ في أعمار البعض ((ومنكم من يرد الى أرذل العمر)) الحج / ٥ ، ويجعل الكافرين شاذين في أخلاقهم وسلوكياتهم ، ليكونوا عبرة لِمَن يطّلع عليهم ، لكن يبدو ان البعض لا يعقل ، ولا يفهم حكمة الله تعالى في مثل هكذا خلق ((**وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ**)) .

كان بينكم أيها البشر ، رسول الله ، يتلو عليكم آيات بيّنات من القرآن الكريم ، لا يبغي من وراء نصائحه وإرشاداته ، وتوصيل قول الله تعالى لكم ، مكسباً و لا ربحاً ، أو مكانة ، و لا أبّهة . وليس له رغبة في بهرج الحياة وزينتها . إن استثنينا ((الصلاة والطيب)) ، إذْ كان (صلوات الله عليه) يجد فيها سعادته ، ولم يكن قد دخل محافل الشعر وآدابه ، ولم يكن شاعراً أو تداول الشعر أو قاله ((**وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ** ﴿٦٩﴾)) ، إنما هو رجل اختاره الله سبحانه ، وجعله متنقلاً في أصلاب الرجال ليختتم به الأنبياء ، في رسالة شاء تعالى ان تكون دستوراً ليس للمسلمين حسب ، بل للبشر عموماً ، مهما كانت دياناتهم السابقة أو عقائدهم أو مقدساتهم .

الإسلام في غير بلاد المسلمين :

وها نحن نرى ونسمع ونقرأ ما عليه الشعوب المتقدمة في أخلاقها وعلومها وعطائها ، نراها تحرص على اتخاذ المفاهيم الإسلامية ، وتطبيقها في حياتها ، رغم عدم اتخاذها الإسلام دينا ، إذْ تجد عندهم المصداقية في التعامل ، ومقتهم الكذب ، والسرقة والخيانة وقول الزور ، وكل ما

جاء به الإسلام ، وما رغب به الرسول الأمين ان يكون في مجتمع العرب (خاصة) والشعوب الأخرى (عامة) في حينه ، وسار على نهجه صحابته وآل بيته ومن تبعهم ، ومرّت السنون سراعاً لنجد الصدق فيما رآه الشيخ محمد عبده في انه رأى في بلاد الغرب اسلاماً من غير مسلمين ، كما رأى في (بلاد المسلمين) مسلمين من غير اسلام .

انها (رؤية مختصرة وكلام موجز) ولكن لها مدلولاتها الخطيرة على المسلمين فيما يسلكونه ، ويتعاملون به في حياتهم اليومية ، ينبغي الإستيقاظ من سباتنا لنرى الى أية هاوية نحن منحدرون ، ولنرى ان السعادة المنشودة قد فُقِدَت ، وبعض أصحاب القرار في توجيه المجتمع الإسلامي قد اتجهوا نحو مكاسبهم ، تحت عناوين ومسميات ما أنزل الله بها من سلطان ، ولم يكن ما جاء به الرسول الأمين من تعاليم إلهية قد التفتوا اليها ، واتخذوها منهاجاً ، وطريقاً سالكاً .

والبعض الآخر جعل منها عناوين يتخَفّى من ورائها،ويوجهها الوجهة التي تحقق له مكاسب أكثر.

سبق للرسول (صلوات الله عليه) أن بعثه الله سبحانه بشيراً للأحياء ممن يتّخذ آيات القرآن الكريم دستوراً ، وفيها سعادته الدنيوية ، ومثلها في الحياة الآخرة.

كما كان (صلوات الله عليه) نذيراً للكافرين ممن لم يلتزم بتعاليم الإسلام ، فيكون مصيره جهنم مستقراً .

فقد جاء النبي الأكرم ((**لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴿٧٠﴾)) .

لقد وجدنا آيات القرآن الكريم تصرخ بالإنسان ان ما يتمتع به من نِعم ، لم تكن قد جاءته عفواً ، أو كان للإنسان يد في وجودها ، إذْ خلق سبحانه أنواعاً عديدة من الحيوانات ، وجعلها للإنسان طائعة ، يستخدمها في حياته اليومية ، وينتفع من نتاجاتها على معاشه .

وكانت ملكاً له يتصرف بها ما شاء له التصرف ((**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ**)) ، إذْ استخدمها في استثمار لحومها وصوفها وشعرها ووبرها وريشها ولبنها ، وما أمكنه الفن الغذائي ان يصنع من منتجاتها ، لتكون له مصدراً تجارياً مهماً ، له فيه مكاسب مالية ضخمة .

ومن هذه المخلوقات التي صارت له فيما سبق واسطة للتنقل ، ونقل الحمولات ، ومادة للتجارة الهامة ، حتى غَدَت اليوم مصدراً لسعادة مالكها ، فقد اهتم لتحسين أصول الخيول والجمال والطيور والأسماك ، ومثلها الحيوانات البرية ، أسودا ونموراً وغزلاناً ، وغيرها مختلفة الأسماء والأنواع والألوان ، مما كانت بأمر من الله تعالى لتكون سهلة القياد للإنسان .

إذْ ذَكَّرَ تعالى الإنسان بقوله : ((**وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ** ﴿٧٢﴾ **وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ** ﴿٧٣﴾)) .

لم يكن بعض البشر قد انتبهوا الى انهم مخلوقات ضعيفة ، ليس لها قدرة على عمل شئ لولا رعاية الله سبحانه لهم بعد ان منحهم الخير أجمعه ، فهم يتمتعون بالصحة الكاملة ، والقوة على إداء أعمالهم ، وليس لهم قليل من الشكر لمانحهم ، وتمتعوا بسعة المال والجاه والمكانة الإجتماعية ، وليس عندهم لحظة تأمّل في الكيفية التي سلكوها ليكونوا في سعة من الثراء ، ولم يكن منهم لحظة يؤدون بها اعترافاً للخالق المنعم مصحوباً بالشكر على نعمه ، تلبية لقوله تعالى ((**ولئن شكرتم لأزيدنكم**)) ابراهيم / ٧ . لكن البعض ممن وسوس له شيطانه إعتقد له قوة وجبروت ، وليس لله تعالى عليه قدرة ، فاتخذوا لهم آلهة من غير الله ، وربما جعلوا المال إلهاً ، والنساء قبلة ، و الملهاة معتكفاً وملاذاً ، ينتصرون بها في حيواتهم ، مباهاةً وتفاخراً .

ولم يلتفتوا الى ان كل ذلك لم يكن يوماً لهم نافعاً و لا نصيرا ، وليس لِما اتّخذوا قوة لردّ الموت المسلّط على كل مخلوق ، أو منع أنواع الأمراض التي نلاحظها تصيب أمثال هؤلاء ، دون الفقراء ممن اعتقد ان له خالقاً بارئاً منعماً يستحق الشكر والتسبيح بحمده .

لم يكن كثير من الإنسان يتذكّر حاله ، وكيف خُلِق ، لا أظن أحداً انتبه لنفسه بعد استيقاظه من نومه كل يوم ، ليجد ما يفرزه جسمه من فضلات ، وله ان يتذكر الحال التي يكون عليها عند اصابته بمرض يسلبه قدرته على ممارسة حياته اليومية حينها ، ينبغي ان تكون تلك الصور له نذيراً ، ومذكّراً بأنه لا يمكن ان يكون على غير تلك الصور ، ان لم يتداركه الله سبحانه برحمته ، وينبغي له ان يتفكر بمصير السابقين له ، بعد ان ينزلوا تحت أطباق الثرى ، فإلى ماذا سيؤول مصيره ؟ أليس له لحظة تفكر بأن جسده هذا الذي جَهَدَ في الإهتمام له ، سيكون أجزاء منه في بطون الديدان مستقراً ، ومن ثم يعود لتجتمع أجزاؤه المتناثرة في بطون الديدان والطيور وذرات الأرض وأمكنة أخرى ، بأمر من الله تعالى ليَمْثُل أمام قضاء الله في حساب عسير ، ليحكم عليه المكوث في جهنم ، في حياة أبدية ، كلّما نضجت جلودهم تستبدل بجلود أخرى ((**إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب**)) النساء / ٥٦ ، ليتكرر عليه عذاب لسع النار المستمر . مع ما سيكون لهم طعام من ((غسلين))الحاقة / ٣٦ ، جزاء ما كانوا عليه من خصومة مع الخالق ، ومجافاة لتعاليمه سبحانه ((**وَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ** ﴿٧٧﴾)) .

" **الخاتمة الأولى** "

وما زال الإنسان في جدال مرير ، غير معتقد بان له عودة في الحياة الآخرة ، ولم يعتقد بقوله تعالى انه سيعيد للعظام الرميم نشأتها الأولى ، ويعيد كينونة ذلك الجسد البالي المتهرئ الذي تقاسمته الحيوانات والحشرات والطيور وذرات تراب الأرض ، وجزيئات الهواء ، ليعود جسداً كاملاً بأمر من الله تعالى ((. . . **قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ** (٧٨) **قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ** (٧٩) .)) .

عجباً للإنسان في غفلته ، أيكون في مكابرته ، يعتقد انه سيكون نِدّاً لله تعالى ؟!!! إنه العجب العجاب . هل يستطيع الإنسان ان يخلق جديداً ؟ إذن فليعمل جهده على خلق جديد ، (على ان لايستعين بشئ مما خلقه الله سبحانه) .

انه تعالى يذكّر الإنسان بضعفه وقلّة حيلته ، ويطلب اليه ان يعبده ، ويسبّح بحمده ، ويشكره على نعمه ((**أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ** (٨١))) .

يبدو ان الإنسان اعتقد بانه صاحب المِنَّة على الله تعالى لأنه مخلوق له ، كما هو الإبن العاق لأبيه الذي يشعر بأنه صاحب مِنَّة على أبيه لأنه إبنه وحسب . دون أن يعزز هذه البُنُوّة بأعمال جليلة يفخر بها الأب ، ويباهي أقرانه وأصحابه .

أيها الإنسان ينبغي لك ان تستيقظ من غفوتك وغفلتك ، ولك ان تسبّح بحمد ربك وتشكره على نعمه لك التي لا تُعَدّ و لا تُحْصى .

فليس يعجز الله سبحانه شئ ، ولم يكن قد وُجِد شئ في الكون منذ خلقه تعالى له ، حتى يرث الأرض وما عليها إلاّ بأمر منه ، ورغبة له بوجود ذلك الشئ ، وهو المالك لكل شئ ، وليس لك أيها الإنسان فرصة المباهاة بأنك تملك شيئاً ، فأنت نفسك لا تملك نفسك . ((**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** (٨٢) **فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** (٨٣))) .

في ظلال سورة الواقعة

(اذا وقعت الواقعة ، ليس لوقعتها كاذبة ، خافضة ، رافعة)

خلق الله سبحانه وتعالى الانسان ، وجعله في أحسن تقويم ، وهيأ له كل إمكانات الحياة ليعيش في هناء وسعادة في الحياة الدنيا ، وعليه إتباع تعاليمه تعالى ، وهوسبحانه ليس بحاجة الى مايؤديه المخلوق ، يقول ابو الهذيل العلاف ((. . . ولم يخلق الله الخلق لحاجة به اليهم ان خلقهم ، لأن خلقه لهم حكمة ، وانما أراد منفعتهم))[١] . ثم وجهه لأفضل الطرق وأحسن

الأساليب ، ومنحه العقل الذي يرشده الى الخير لنفسه ولمن يتعلق به من قريب او بعيد ، من خلال إتباع السبل التي تؤدي به للرفاه والنعيم إبان حياته ، ومن ثم يتلقاه في فردوس جناته ، لينعم بحياة الآخرة،كل ذلك واضح،لكن الانسان الجهول يغمض عينيه ،ويقفل عقله وفكره، كي لايُرشَدَ الى الخير .

ومن هنا لابد من الرجوع الى ((سورة الواقعة)) لقراءتها وتدبرها ، لمعرفة مضامينها ، برؤية فلسفية واقعية ، وعندها سيتوقف العقل عند كل كلمة وعبارة فيها ، ليجد انه في متاهة تقوده الى ما لايتمناه ، ان لم يتدبر السبل لرضى الله تعالى .

فماذا هي الواقعة ؟ ولِمَ يحذرنا منها تعالى عند وقوعها ، مع التأكيد على ذلك الوقوع ، وصدق مرامها في خَفْض الباغي ، ورفْع المؤمن الداعي .

أصحاب المَيْمَنَة :

وهل هو الايمان بالقول حسب؟ أم انه متلازم بالعمل والفعل ، لما ينفع المخلوقات ؟ التي لابد ان ينتفع بما يقدمه للانسان ، سواء للمعاصرين له والقريبين من تواجده ، أم من التالين له من الأجيال التي تنتفع بعلمه محققا رفاهاً وسعادة، وبعدها إرثاً لمن يطلبه ويحتاجه .

انها مجموعة آيات متلاحقة مُنذرة بمصير رهيب ، فماذا تعني عبارة اذا رجّت الارض رجّاً ، وبست الجبال بسّاً ؟ أهي أرجوحة يتلاعب بها الهواء ؟ ام هي كارثة عظمى لايستطيع تخيلها ذو عقل راجح ، ممن سبق له ان سمع أو قرأ عن الكوارث الطبيعية .

فهل تأمّل القاريء عبارة ((**فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثًّا**)) آية (٦) أي صورة رهيبة تكون عليها الارض والجبال عند وقوع الواقعة ؟ !!!

ومَن هم الازواج الثلاثة ؟ انهم المؤمنون القانتون العالمون العاملون للخير ، لهم ولغيرهم هؤلاء في جمع إتّخذوا صفة (أصحاب الميمنة) .

يقابلهم جمع آخر ، تعمّهم الفوضى والرعب والخوف والهلع ، وهم يتخبّطون خَبط عشواء ، ولامغيث لهم ، ولاينفعهم بعد ذلك رجاء العودة ، كي يكفّروا عما فعلوا ، وقد وُصِفوا بـ (**أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ**) آية (٩) .

ليتمتع السابقون السابقون بجنات وارفة :

وجمع ثالث ، لهم المقرّ الدافيء ، والمكان الواسع ، تظللهم اشجار وارفة ، في جنات نعيم ، هؤلاء الجمع هم الموصوفون بـ (**وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ** ﴿١٠﴾) حتى لَتَخالهم قلّة قليلة من الآخرين ، فمن يكون اولئك ياترى ؟ أهم العلماء ، وذوو الرأي والفتوى الشرعية المؤدية

بالإنسان ان يسلك طرق الخير للإنسانية ، فيما يقول ويدعو للورع والتقوى ؟ او ممن إعتكف في مصلاه يرتـّل الآيات الكريمة ، ويعمل بها ويدعواليها ، ويتهجد آناء الليل وأطراف النهار ؟ أم هناك آخرون معهم ، أمثال العلماء في العلوم الحديثة ، وممن لم يكن قد ضحى بساعة من وقته ،ليدعوللتقوى والفضيلة ، بل إعتكف في مختبره ليعمل على صنع ما يـُسـَهـّل للبشرية إداء أعمالها ، او يحافظ على صحتها ، او يقر ّب المسافات البعيدة ، فيما يصنع من أدواء وأجهزة ، تخدم الانسان في مواصلاته وإتصالاته وأعماله الحياتية اليومية ، صغرت أم كبرت في إدائها ؟ او من الفلاسفة ، اذ وجدنا ان((اخلاق افلاطون تتميز بالزهد والنسك ، الذي يتحلـّى بها ذوو الطبقة المختارة التي تعيش حياة فاضلة ، شريفة ، عاقلة . . . وليس الضرورة ان تكون الاخلاق حـِكراً على الفلاسفة ، اذ توجد عند أناس غرباء عن الفلسفة ، وهؤلاء يضعهم افلاطون في فردوس خاص بهم ، في ارض طاهرة ، يتوجب على الفلاسفة ان يحتلوه ، كي يظلوا طيلة حياتهم عازفين عن ملذات الجسد ورغباته . .)) [٢] . انها نعـَم إلهية أ ُسبغت على الانسان،قال تعالى((**وعلمنا الانسان ما لم يعلم**)) الفلق / ٥ .

هؤلاء هم السابقون السابقون الذين انتبهوا ، ليستريحوا على سرر موضونة ، متقابلين على الارائك ، يقوم على خدمتهم ، ولدان مخلـّدون ، مختارون ، ليطوفوا عليهم بأكواب وأباريق وكأس من معين ، ((**فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ**)) آية (٨٩) ، وهي السعادة عند أصحابها ((فالسعادة اذن هي الغاية القصوى للإجتماع البشري ، على ان يكون ذلك الاجتماع بتراتب منتظم صالح ، هدفه إسعاد الامة، بعيدا عن الشرور)) [٣] .

هلاّ توقفنا قليلاً عند هذه الصور الجميلة ، ربما يكون هناك (**معاند ومجادل**) ليد ّعي ان في هذه الحياة الدنيا ، ميسورة الكؤوس والأباريق والفاكهة المختلفة الانواع ، ولحم طير وما تشتهي الأنفس ، وميسور أيضا ً ما يتواجد من فتيات وبأحسن صور وهندام ، وما اليها من مواصفات ، وميسور ايضا حصول الهدوء والسكينة التي لايتخللها (**لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا**) آية (٢٥) ، وممكن جعل الحوار الذي يدور بين هذا الجمع مقتصرا ً على (**سلاماً سَلَامًا**) آية (٢٦) .

ان صح ّ ذلك عن المجادلين ، فهي اذن مكابرة ما بعدها مكابرة ، ذلك ان مـَن يتوفر له ذلك ، لابد له من صحوة عن حلم كان يعيشه ، لينالـه بعده الحسرة على ما سيلقاه من مرض ، وخسارات وهموم الدنيا التي لن تنقطع الاّ بموته ، الذي سيحشر بعده ضمن جمع ((أصحاب المشأمة)) . ولعلنا نرى فيما رآه الفلاسفة جميعا ، إسلاميين وغير إسلاميين كانوا ، اذ ((يرى (ابن عدي) ان ما يكون من إختلاف في أخلاق الناس يرجع الى الاختلاف في قوى النفس

الثلاث ، التي وصف أحدها ، بانها النفس الشهوانية التي تنطوي على رغبتها في المأكل والمشرب والمباضعة ، حتى لتكون هي المسيطرة ، والموجهة لصاحبها نحو الرذيلة ،ويكون همه تحقيق الشهوات الجسمية ، عند ذاك يقل حياؤه ، ويكثر خَرَقَه ، وينقاد الى مجالسة أهل الخلاعة والمجون والمجتمعات الفاسدة ، مبتعداً عن مجالسة أهل العلم والفضيلة ،وتصير حالته الى الهزل ، وكثرة اللهو والفجور ، وارتكاب الفواحش)) (٤).

هنا نجد الفرق قائما بين هؤلاء (أصحاب المشأمة) وأولئك (السابقين) الذين هم يعيشون أبداً في سعادتهم ، ليس بعدها إستيقاض من حلم ، او خسارة تنالهم .

ومعهم (أصحاب اليمين) الذين وجدوا مكانهم تحت ((**فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ** ﴿٢٨﴾ **وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ** ﴿٢٩﴾ **وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ** ﴿٣٠﴾)) يتوسدون (**وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ**) آية (٣٤) وليتمتعوا بمن أنشأهن الله تعالى خصيصاً لهؤلاء(**أَبْكَارًا** ﴿٣٦﴾ **عُرُبًا أَتْرَابًا** ﴿٣٧﴾) .

هذه صور زاهية ، يتمناها المرء ، لكن عليه العمل في حياته ، لما فيه الخير للإنسانية كي ينعم بها.((**وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ** ﴿٩٠﴾ **فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ** ﴿٩١﴾)).

صور أُخروية مخيفة :

تقابل تلك الصور المذكورة ، صور اخرى مخيفة ، تعكس ملامح (أصحاب الشمال/المشأمة) الذين نتخيلهم ، تتقاذفهم عواصف من السموم والحميم ، حتى تكاد جلودهم تنسلخ عن اللحوم ، وهم يرقدون في ظل من يحموم ، يبحثون عن نسمة باردة ترطب عليهم أنفاسهم ، ولايجدون.

هؤلاء هم أصحاب الرؤى الفاسدة ((فأنهم لم يكونوا قد عرفوا السعادة او فكروا بها ، او سعوا اليها ، ولو تسنى لمصلح ان يوجههم اليها ، لم يكونوا ليعيروا له اهتماما ، ولاحاولوا تجربتها ، ذلك في حسبانهم لأمور مادية ، انها هي الغاية التي يبغونها ، ظانين انها خيرات الحياة النهائية ، كسلامة البدن والتمتع با للذات وإطاعة الشهوات)) (٥) ولم يكن الفارابي قد غفل هذه الناحية ضمن فلسفته ، اذ قال ((والسعادة العظمى الكاملة ، هي اجتماع هذه كلها ، وأضدادها هي الشقاء ،وهي آفات الابدان والفقر،وان لايتمتع باللذات،وان لايكون مخلي هواه،وان يكون مكرما)) (٦) .

ولوسألت أولئك ((**وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ** ﴿٩﴾)) عن ماذا عملتم وفعلتم ليكون مصيركم على مانرى ، سيقولون: اننا نادمون على ماكنا نصر على الحنث العظيم ، وكنا لم نؤمن باننا بعد موتنا سنُبعث مرة اخرى،لاننا لم يسبق ان رأينا من آبائنا مَن عاد بعد موته ، او بُعث ليخبرنا بما لاقاه ورآه .

وسيؤكدون بانهم كانوا يستهزئون مما يسمعون من نـُصح وتحذير أكدت عليه الآيات الكريمة ، المنذرة بهذا اليوم الموعود ، وسيقولون : لم نصدّق اننا وآبائنا سنجتمع في هذا(الميقات المعلوم) لذا فأكـْلـُنا اليوم من شجر الزقوم ، التي تملأ بطوننا ، ونشرب بعدها من الحميم كما تشرب الهِيم ، لاننا كنا ضالين مكذبين بما أُنزل على صدر رسول الله (صلوات الله عليه).

اذن ايها الضالون المكذبون، لقد قرأنا في آيات القرآن الكريم،انكم ستبقون أبداً على هذا الحال والمعاناة. ألـَم يـَدُر بخلدكم انكم قد خُلقتم بأمر إلهي،لم تعلموا عنه شيئا، ولن تعلموا.حقا انكم عرفتم كيف وُلـِدتم كنشأة متكاملة،لكن غفلتم عن صانعكم وخالقكم .

أمَا تخيـّلتم الزرع الذي كنتم تزرعون ، فهل لكم القدرة على إنباته ونموه ، أم ان الله سبحانه هو الذي جعل نموه وإثماره بقـَدَر وإرادة كما شاء ، فهل سبق علمكم بان بعض الزرّاع يجنون فيضاً من الثمار ، وآخرون يصيب زرعهم الحطام،وتصيبهم الخسارات الكبيرة لسبب أراده الله تعالى لهؤلاء .

ثم هلاّ تدبرتم قطرات المطر ، وكيف تتكون لتنزل على الارض ، منها ما يـُنبت الزرع ، ومنها ما يؤدي الى كوارث ، تعجزون عن درئها ، ومن المطر ما يترك أرضاً ، ويعاف النزول عليها ، فهل تدبرتم هذه القدرة العظيمة ، لهذا الصنع ، وهذا العطاء ، وهذا المنع ؟ انه امر ، كان يتطلب التوقف عنده ، والتفكر به ، قبل نزولكم ضيوفا هنا ، ان هو الاّ ((**فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ** ﴿٩٣﴾ **وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ** ﴿٩٤﴾)) في مكان لا سرر فيه ولا نعيم ، فابقوا اذن ايها المكذبون .

ولعلنا نرى من يقول : ان الله اراد ذلك لنا ، ولوشاء لهدانا الى الخير ، معتمدين قوله تعالى ((**ان لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً**)) الرعد / ٣١ .

وغفلوا ان الله تعالى قد أوضح للمخلوق السبيل بقوله سبحانه ((**انا هديناه السبيل ، اما شاكرا واما كفورا**)) الإنسان / ٣ ، وعلى المخلوق ان يتبع طرق الخير ليـَحـْصـُل له الثواب ، وفي النهاية يتمتع بالجنات والنعيم .

ومن اتبع طرق الشر والفساد ، سيناله العقاب ، ومن ثم يكون مأواه جهنم وسوء المصير . قال شيخ المعتزلة واصل بن عطاء ((ان الباري تعالى حليم عادل ، لايجوز ان يـُضاف اليه شر وظلم، ولايجوز ان يريد من العباد خلاف ما يأمر،وان يحكم عليهم شيئا،ثم يجازيهم عليه)) [٧] .

هل عُرِفَ معنى القسم الإلهي ؟ :

وآخر آيات السورة نقرأ ان الله تعالى قد أقسم بمواقع النجوم ، وأكد على عظمة هذا القسم ، الذي لايعلمه كثير من الناس ، فقد أشار سبحانه الى ان القرآن هو كريم مكنون ، ليس لغير المطهرين

ان يمسوه ، لأنه منزّل من رب العرش العظيم ، لم يجرؤ أحد من المخلوقـــات ان يدّعيـــه ، او يشاركه بهذه القدرة . ((إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾)) .

" **الخاتمة الثانية** "

هلاّ تدبرنا الآيات وما فيها من ارشاد لفعل الخير للإنسانية ؟ ام انه صراع يعيشه الانسان مـــع ضميره ونفسه ، التي يتلاعب بهما الشيطان ليغويه بسلوك طرق الشر ، مما يؤذي به الآخرين ، ويعطـــّل مسيرة الخيـــّرين الذين نذروا انفسهم لخدمة الانسانية اولاً ، ومن ثم لينالوا رضى الله (سبحانه) ، كي يفوزوا بتلك الامكنة الموصوفة ، وما سيتمتعون به من خيرات ؟ .

المصادر والمراجع

١ – الاشعري ، ابي الحسن ، مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين ، ب.ط.ت ، ج٢ / ٤٨٤ .

* – البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق ص١٢٨

٢– المخزومي ، عادل ، الفكر الفلسفي الاسلامي خلال اربعة قرون الهجرية الاولى ، بغداد / ٢٠٠٥ م ، ص ١٥٤.

٣ – المخزومي عادل ،البداوة والحضارة في فلسفة الفارابي ، بغداد / ٢٠٠١م ، ص ٩٤.

٤ – المخزومي ، الفكر الفلسفي ، ص ١٥٦ .

٥ – المخزومي ، البداوة والحضارة ، ص٧٤ .

٦ – الفارابي ، اراء اهل المدينة الفاضلة ، بيروت /١٩٦٨م ، ص ١٠٦ .

٧ – الشهرستاني،محمد بن عبد الكريم بن ابي بكر احمد،الملل والنحل ، القاهرة /١٩٥٦م ، ج١/ ٢١ .